المـخـــاط

مودن عبد الرحيم

اسوداد أسفل الجفنين ... تمتص اللعاب بعصبية حتى خيل اليك أن اللهاة قد تحولت الى حاجز اسمنتي ... تدفع اللعاب بعنف داخل الفـم ... يلتصق لسانك اليابس بالتجويف الداخلي للفك العلوي محدثـا خشخشـة مقيتة ... تطرد عن عينيك ذبابا ملحاحا ... تنتظر نزولـه بلهفـة وشـوق زائدين ... مددت عنقك الى الامام ... تقوس ظهرك الى الوراء ،، أدخلت ركبتيك في صدرك الحزين بنياشين عظيمة برزت في تحد غريب ... انتظرت ، و « أول الغيث قطر » .. خيط رفيع من مخاط أخضر اللون تدلى مثـل سلك « بلاستيكي » مذاب ... لعقته بلسانك ، فأحسست بخفة وزنك ، وسريان الدم في عروقك المنتفخة تحت جلدك الاصفر . همست لنفسك : ما أحلى أيام الطفولة ! طفحنا وأتخمنا بأنواع المخاط الاخضر والاصفر .

أعدت التجربة مرة أخرى ، فأحسست بطعم الملـح المشبـع بالماء . همست لنفسك مرة أخرى : كان خبزنا اليومي تقل فيه « غرامات » الملح في كل قطعة خبز تتآكل تدريجيا متخذة في النهاية شكل ذرات الملح !!

هذا أنا وهذه مدينتي : « غرامات » ملح وذرات خبز تذروهـا ريـاح الشتاء التي تتخللها زخات المطر ، وعجنت أخيرا بالوحل ، وسيقان القصب الجاف وعرق صبية المخبز التقليدي ونظرات صاحب صدوق النارية ... صنعنا من كل ذلك أهزوجة ونشيدا وصلاة ، ورددنا في الازقة والحارات وأمام المخابز التقليدية بأصوات مرتفعة .

« **المعلم بوزكري / طيب لي خبزي بكري / باش نعشي وليدتي** »

هش ... تصب ... أوف ،،، اللعنة على الجديع .

غنينـا مرـة أخرى :

« **المعلم بوزكري / طيب لي خبزي بكري / باش نعشي وليدتي** »

قالت العرب : أفّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ... لذلك فقد غنينا باصرار مرة أخرى ورفعنا أكتافنا وضحكنا ببراءة ... أرجلنا الصغيرة تغـوص فـي الوحل الاسود ، المخبز التقليدي تغري حرارته الشبقية باقتحامه ، والصندوق

النقدي يحظى بمسحات مباركة من يد المعلم « بوزكري » ... نظرنا الى المخبز والعلم « بوزكري » ومشارف المدينة الاخرى نظرات زائغة ...

هذا أنا وهذه مدينتي ... المدينة الاخرى ليست أبدا بمدينتي ... تنظر الى من عل ... تحتضن مدينتي في « لين بغير ضعف وقسوة في غير عنف » .. المدينة الاخرى في مواجهة الرأس ، والرأس يواجه مدينتين ... أنزلت الرأس بهدوء ، وجعلت وجهته المدينة ... مسحت على سطحه المنحنى فترامى الى سمعك هدير دراجة نارية من نوع « ياماها » تمرق بسرعة مخلفة وراءها شريط من دخان أزرق وغبار أصفر ... تدحرجت الخوذة البلاستيكية فتذكرت قوانين السير التي تلزم السائقين باحترام اشارات المرور ووضع الخوذة البلاستيكة على رؤوسهم ... الرأس الذي كان يحاذي بصرك ينظر اليك نظرات كلب وفي ... أحببت المخاط واسترحت لقطراته المتساقطة بهدوء ... القطرات تكبر وتنتفخ ويشحب لونها الاخضر وتزداد سرعتها في التساقط ... سألك الرأس بعد تردد طويل :

ـ أريد خوذة بلاستيكية .

ـ « عليك بالمدينة الاخرى »

أجبته بلهجة قاطعة ... عاد الرأس الى وضعه الاول .. حاولت أن تتذكر ملامح تلك المرأة البضة التي شقت جيبها عندما اقتحم جندي من اللفيف الاجنبي بيتها بحجرته الواحدة ... تسمرت نظراته على صدرها الناصع ثم تراجع مذعورا الى الوراء ... أمسكت ـ متقدمة الى الامام ـ بضفيرتيها الغليظتين وجذبتهما بعنف متحدية الجندي الاشقر .

ـ اضرب .

سألت أمي عن معنى أن تبرز المرأة صدرها للرجل الغريب ، وأن تشد شعرها بكل هذا العنف ... نهرتني أمي وقالت ببساطة :

ـ أمر مخجل ... عار ... صدر الزوجة وشعرها ملك زوجها .

ـ ولكن ؟

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء .

تمسح مرة أخرى على سطح الرأس المنحني ... المخاط الثقيل يتساقط بانتظام ... يسيل جفنيه ... الرأس راسي ،،، يغمض جفنيه بقوة ،،، الرأس راسي دائما ... العين تدمع والقلب ينز دما ... الرأس راسي ،،، الدموع فقاعات زجاج مصهور ... الدمعة تلو الدمعة ... الرأس راسي ،،، الدمعة تلو الدمعة ، وعبر كل دمعة رأيت انسياب النهر العظيم والدماء السوداء المتجمدة على ضفتيه اليسرى والوجوه المندوبة وافرازات الدمامل الطافحة بالصديد والديدان ... الرأس راسي ... قال الرأس ،،، قلت أنا بصوت خافت :

ـ أين أنا ؟

كان وجهك ـ يا صغيرتي ـ قد تحول الى صفة نهر رائعة تشبه صفحة نهرنا العظيم برائحته الطينية وأعشابه المرتوية وعبير برتقاله المتعفن .

الدمعة تلو الدمعة .

رائحة الجيف تعم المكان ... تسمع أصواتا وصراخا ، بل طلبات نجدة ... ولكن أين أنا ؟

أغرب الغرائب في هذه المدينة أن ترى الوجه المتشنج دون أن تسمع الصوت ... أي صوت ؟ فأين هي الصورة وأين هو الصوت ؟ تضيق المدينة وتتحول الى أربعة جدران فاحت من جوانبها روائح البول والبراز والانفاس المشبعة بالتبغ والحقد الاسود وعطانة الجثث المتعفنة ... أربعة جدران تحمل عبارات الذكرى واسم الانثى والقلب الذي اخترقه السهم الشهير والصليب المعقوف أخيرا ... وليمنع منعا باتا الوقوف والجلوس والهبوط والصعود والتنفس واختزان الهواء والنظر والتبول وحد مؤخرة الرأس وادخال اليدين في جيوب السراويل ... احذروا انها أعمال لا أخلاقية ... الامهات تعبن من خياطة الجيوب المثقوبة لاشقياء هذه المدينة المشؤومة ... جسد نجوى فؤاد الضخم المنبجس في احدى الملصقات يندفع بقوة صاروخية نحو جيوب اشقياء المدينة ... هذا الساق المكتنز تزهق من أجله الارواح للحصول على لمسة خفيفة فوق بشرته المسهلة للانزلاق نحو منبع الخلق ... وما هو الموت؟ الموت موت في كل بقاع الارض ؟ تتحسس الجدار الرمادي اللون ... يصعقك تيار قوي المفعول ... الطلاء نسيج لحم بشري ما زال يحتفظ بنوع من اللمعان والرواء ... هكذا اذن ؟! انتظروا لم اكمل بعد . تزيله بهدوء :

القضبان الحديدية مرصوصة بانتظام بطريقة عمودية وافقية ... المعذرة، اردت ... لماذا تندفعون الى الخارج ؟ دورات المياه مغلقة ... الشوارع غسلت بالصابون المعطر حتى لا تدنسوها بفضلاتكم ... الكريهة ... ساكمل ،،، الشرايين تغلي بدماء حارة ... تشدها بحذر فتتمدد مثل اسلاك مطاطية ... تتركها ثابتة ... تحدث تطنينا يصم الآذان مثل أوتار قيثارة كهربائية ...

الدمعة تلو الدمعة .

وماذا تنتظر ؟ الفحم الحجر لن يزهر ولن تتفتح براعمه ... سيظل ذهبا سيالا نحو خزانات جديدية ، لا تفتح الا بارقام خاصة ورموز معقدة ومعادلات رياضية ... لن ينهض الموتى من قبورهم وقد دهنوا رؤوسهم الصلعاء بزيت أصيل ورقصوا على ايقاعات الحذبة ونظروا الى الافق في تحد وصلابة .

هذا انا وهذه مدينتي ... الشمس محرقة ، والصهد يلتهم كل شيء ... تحثر بملابسك الصوفية جيدا ... كدس الباقي منها داخل هذه الحقيبة السوداء ومن يدري الاحوال الجوية لا تستقر على حال : رياح قوية ... غيوم منتشرة على الساحل ... ارتفاع في درجات الحرارة ... المنطقة الداخلية تغلي

بمواصف ثلجية ساخنة ... قطع الثلج يتصاعد منها البخار الساخن ... ثلج محرق ... مآت الدرجات تحت الصفر داخل كل أربعة جدران ... تدثر جيدا ..، احكم ربطة عنقك الصوفية ... زرر معطفك الشتوي وسط هذا الحر الالفح ، وتذكر أن فصل الصيف فصل المواسم والمجاذيب والاعراس ... اترك كل شيء ... تعالى معي ... تمد يدك نحوها ...، يطول ساعدك ويطول ...، يتمطط بافعوانية . ولكن أين أنا ؟

شع لمعان من خاتم ابيض اللون احتضن بنصرك ... ابتسمت وخاطبتها بلهجة مسرحية :

ـ هذا العمل رد على القهر والانتكاس والمسخ والكبت والموت .

يلمع الخاتمان في أصبعيكما ، والانبهار شكل طوال التاريخ وسيلة حتمية للخوف والحب والمعرفة .

ليبارك الله هذه الخطوات الاولى .

انسابت الدموع على أخاديد وجنتيك المحفورتين منذ عهد صخر وخناس، ثم ابتدأت رحلة العبور مرة اخرى .

ـ خطوة جبارة لا شك فيها .

أومأت برأسك موافقا وأنت لم تسأم التجذيف والسباحة عبر وجهها الطفولي ... سألتها عن ثمن سطل نبات الصبار :

ـ نصف درهم .

نظرت الى نبات الصبار برؤوسه المدببة كقذائف صغيرة ثم رفعت نظرك اليها مرة أخرى .

ـ الاشواك من نصيبي ... الامر هين ... نصف درهم وسنتيمات قليلة لانتزاع الاشواك ... النبتة ستصبح ملساء مثل موزة شهية ... انظر جيدا .

تلتقط نبتة صبار مرصعة بأشواك توزعت بين القصر والطول ... تغرس ابهامها الطري ... تقفز « الفراخ » الكهربائية المبنجسة من البيض الاصطناعي ... الافراخ تتكاثر بصورة غريبة ... الاصابع تنغرس في الاغشية الطرية ... رفضت بهزات سريعة من رأسك ... ضحكت بعينيها البنيتين فانغرست أشواك الصبار في الجلد الاسمر المدبوغ ، وتدفق الاحمر ...

ـ آه .. لو العقه بلساني .

ـ ماذا ؟ !

ـ اريد شربة ماء .

تمتد يد الى صفيحة قصديرية ، تقفز بسرعة نحو صحن أبيض من الالومنيوم وتدفعه نحو الصفيحة القصديرية المائلة بطريقة أفقية .

ـ اريد أن أكون كلبا .

لعقت الماء بلسانك من صحن الألومنيوم فأحسست بانتعاش لذيذ وحاولت أن تكون كلبا عاديا لا أقل ولا أكثر .